

الإخلاص في الدعاء



إن الدعاء هو عبادة حقيقة، بل هو مخ العبادة والعبادات بشكل عام يُقصد فيها المعبود وحده لا غير، ولأجل ذلك يكون العبد مُستحقًا للأجر، وأمّا مَنْ قصد جهة أخرى فإنّه لا يكون مُستحقًا للثواب والأجر، بل هو مُستحق للعقوبة، لأنّه بتلك الصورة إمّا أن يكون قد وقع في براثن الشرك الأكبر، كما هو الحال بالنسبة لقريش التي كانت تسجد للأصنام بقصد أرّها رُقراً بهم عالى، وإمّا أن يكون قد وقع في الشرك الأصغر، كما هو الحال بالنسبة للمُرائين في أعمالهم، فهؤلاء على أقل التقادير ستكون أعمالهم باطلة، ولعل هذا النوع من الشرك هو الأكثر انتشاراً بين الناس، ومن هنا نفهم سر تحذير النبي الأكرم (ص) لنا من ذلك، حيث كان يقول (ص): "إنّي أخاف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيمة للمرأين إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراؤون لهم في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء".

وقال (ص): "استعيذوا بـ الله من جُبـ الحَزـن، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: وادـ في جهـنـم أـعـدـ للقرـاء المـرـائـينـ، وقال (ص): "يقول الله تعالى: مـن عـمـلـ لـي عـمـلاـ أـشـرـكـ فـيهـ غـيرـيـ فهوـ لـهـ كـلـهـ، وأـنـاـ مـنـهـ بـرـئـ، وـأـنـاـ أـغـنـيـ الـأـغـنـيـاءـ عـنـ الشـرـكـ"، وقال (ص): "لا يـقـيلـ اللهـ تـعـالـىـ عـمـلاـ فـيهـ مـثـقاـلـ ذـرـةـ مـنـ رـيـاءـ"، وقال (ص): "إـنـ أـدـنـيـ الـرـيـاءـ الشـرـكـ". وقال (ص): "إـنـ الـمـرـائـيـ يـنـادـيـ عـلـيـهـ يـوـمـ الـقيـامـةـ: يـاـ فـاجـرـ! يـاـ غـادـرـ! يـاـ مـرـائـيـ! ضـلـ عـمـلـكـ، وـحـبـطـ أـجـرـكـ، اـذـهـ فـخـذـ أـجـرـكـ مـمـنـ كـنـتـ تـعـمـلـ لـهـ"، وقدـ كـانـ (ص)ـ يـبـكيـ، فـقـيلـ لـهـ: مـاـ يـبـكيـكـ؟ قالـ (ص): "إـنـيـ تـخـوـفـتـ عـلـىـ أـمـتـيـ الشـرـكـ، أـمـاـ إـنـهـمـ لـاـ يـعـبـدوـنـ صـنـماـ، وـلـاـ شـمـسـاـ، وـلـاـ حـجـراـ، وـلـكـنـهـمـ يـرـأـوـونـ بـأـعـمـالـهـمـ".

و والإخلاص هو خُلُوص العمل من الشوائب، و معنى خلوص الدعاء من الشوائب هو عدم التفات القلب

أثناء الدعاء إلى غير المدعوه، وهو الله تعالى. فإذا ما توقف الإخلاص وطهر الدعاء من الشوائب فلأنه سوف يكون طيباً، وخلواً من الخبائث المعنوية، وعندئذ سوف يكون مشمولاً لقوله تعالى: (إِنَّمَا يَصْدُقُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...) (فاطر/ 10)، وعندئذ سوف يكون الداعي داعياً حقاً؛ تحقيقاً لقوله تعالى: (وَإِذَا سَأَلْتَكُمْ عَنِ الدُّعَاءِ فَإِنَّمَا يَقُولُونَ أُجِيبُ دَعَوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَتْ حِبْدُونَ) (البقرة/ 186)، وفي غير صورة الإخلاص لا يصدق عنوان الدعاء إلا من باب المُسامحة، وإن كان للإخلاص مراتب، فإن خلو الدعاء منها يُفرغه من عنوان الدعائية.

الذهب المُصَفَّى:

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي (ع) كلمة في ذلك، جدير بأن تُكتب بماء الذهب، بل هي الذهب المُصَفَّى كقالتها، وهي قوله: "وَخَيْرُ الدُّعَاءِ مَا صَدَرَ عَنْ صَدَرٍ نَقِيٍّ وَقَلْبٍ تَقِيٍّ، وَفِي الْمَنَاجَةِ سَبَبُ النَّجَاهِ، وَبِالْإِخْلَاصِ يَكُونُ الْخَلَصُ، إِذَا اشْتَدَ الْفَزْعُ إِلَى الْمَفْزَعِ" ، والخيرية في كلمة الطهر على (ع) والتي جاءت على صيغة أفعال التفضيل، لا تعني وجود خير أو لي في الدعاء الحالي من الإخلاص، لأنّه كما قلنا ليس بدعاء، بل هو سالب بانتفاء موضوعه، وموضع الدعاء في المقام هو التوجّهُ الخالص لله تعالى، وإنّما أراد (ع) بالخيرية الإشارة إلى مراتب الإخلاص، وأنّ خير هذه المراتب ما كان صدر الداعي فيه نقىًّا، وقلبه تقىًّا، فافهم.

وي ينبغي أن يُعلم بأن الإخلاص وليد الحب، فلا إخلاص لمن لا حب له، وبذلك نفهم بأن مراتب الإخلاص هي الآخرى عائدۀ لمراتب الحب، فالمراتب الدانية تولّد حباً دانياً، والعكس بالعكس، وأماماً الحب فهو الآخر وليد أمرٍ آخر أصلاً ومراتب، وهو المعرفة، فمن عرف الله تعالى أحبه الله ومن أحبه أخلص له.

وعليه فمن كان فاقداً للإخلاص في عباداته فذلك كاشفٌ إنّي عن فَقْدَهِ الحبِّ الله تعالى، ومن فَقَدَ الحبِّ الله تعالى فذلك كاشفٌ إنّي عند فَقْدَهِ لمعرفة الله تعالى، مما يعني أن الأُسْ في كل هذه المعادلة هو معرفة الله تعالى، كما أن هذا الترتيب الطولي بين المعرفة والحب والإخلاص هو ترتيب ذاتي، وسذمةٌ إلهيةٌ، ومسلكٌ قرآنٌ مُنسجمٌ تمام الانسجام مع فطرة الإنسان، رزقنا الله تعالى معرفته وحبه والإخلاص له.

ثم إن الإخلاص له حقيقةٌ كامنةٌ وهي نفس النية، فالنية هي الصورة الباطنية للعمل، بل إن القيمة الحقيقية للعمل تكمن في النية، أمّا صورة العمل الظاهرة فقيمتها مُستمدّة من قيمة العمل وصورته الباطنية، وهي النية، وإنّا فهو لا قيمة حقيقة له، ومن هنا نفهم كلمات رسول الله (ص) في المقام، حيث يقول: "إنّما الأعمال بالنيّات، ولكلّ امرئٍ ما نوى"، و"النيةُ أساس العمل"، و"الأعمال ثمارُ النيّات"، بل إن "نية المؤمن خيرٌ من عمله، ونية الفاجر شرٌّ من عمله".

وعليه فخلصة كل عملٍ وذرورتهُ تكمن في إخلاص النية الله تعالى، بل في إخلاص النية تكمّن قيمةُ الإنسان وحقيقةَه، ودون ذلك الإخلاص والقصد سيد الإنسان عمله هباءً منثوراً، فإن كل عملٍ فيه شركة فهو لذلك الشريك الضعيف، قال تعالى: (وَقَدْ مَنَّا إِلَيْهِ مَا عَمَلَ وَمَنْ عَمَلَ فَجَعَلَ نَاهٌ هَبَاءَ مَنَّاهُ مَنَّاهُ مَنَّاهُ) (الفرقان/ 23). ذلك العمل الأجوف تماماً الحالي من قيمته الفعلية، قد أحيل إلى هباء منثور، لأنّه في حقيقته مجرّد قشور فارغة، فلم يكن شيئاً يُذكر سوى عند صاحبه الطائع له والسايعي خلفه فيحسبه ماءً وهو: (كَسَرَابٍ بِرَقْبَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الطَّمَآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّاهَ عَنْدَهُ فَوَفَّاهُ حَسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (النور/ 39)، وأصحابه وصفوا بقوله تعالى: (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (المجادلة/ 18).

ومن هنا يتضح لنا الوجه الناصع لقوله تعالى: (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَّائِرُ) (الطارق/ 9)، حيث يكشف اللثام عن النوايا ويُبيان كلّ إنسان على حقيقته، فلم تُعبدَ الآية الكريمة بالأعمال وإنّما عبدَت بالسرائر التي هي الداعي الحقيقي الكامن وراء الأعمال وما انطوت عليه الضمائرة؛ فـ"مَنْ حَسِنَتْ نِيَّتَهُ كثُرتْ مِثْوِبَتِهِ" ، وعندئذ تتمايز السرائر بحسن النوايا وقبحها، وهنا يُروى عن أمير المؤمنين (ع) قوله: "حُسْنَ النِّيَّةِ جَمَلُ السَّرَّائِرِ" ، لأنّ السرائر هي البطانة التي تمثل واقع والإنسان، والنية أمر باطني، فجمال السريرة مقترب بجمال النية، والعكس بالعكس.

وهذا الجمال والحسن كفيلان بحفظ العمل ومضاعفة الأجر عليه: (إِنَّمَا لَا زُهْرَى مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) (الكهف/ 30)، و(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (التوبه/ 120)، فليكن ذلك الجمال الواقي والحسن الساقى مطلباً ومقدماً، (لِمَثْلِ هَذَا فَلَدُونَ عَمَلَ الْعَامَلُونَ) (الصافات/ 61).

وينبغي أن يعلم بأنّ الإخلاص في أحد وجهاته يعني دفع الأغيار عن تُحبّ وتقصد، لأنّ الإخلاص يعني الطرد التام للشوب الذي هو مقابل له، كما نصّ على ذلك علماء اللغة، وهو المروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) حيث يقول في حديث طويل يُبيّن فيه جنود العقل والجهل: "والإخلاص وضدّه الشوب".

راتب الإخلاص:

وأخيراً فإنّ للإخلاص راتب ثلات، وهي:

المرتبة الأولى: إخلاص العوام، وهو ما يوافق المعنى اللغوي، أي تصفية العمل القلبي من كلّ شوب.

المرتبة الثانية: إخلاص الخواص، وهو إخراج رؤية العمل من العمل، بحيث لا تفتخر في نفسك بالعمل، ولا تعتقد أنّك تستحق عليه ثواباً.

المرتبة الثالثة: إخلاص خاصة الخاصة، وهو الخلاص من رؤية نفس الإخلاص، وهو أشدّ المراتب وأعظمها.

فال الأولى: هي تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين، والثانية: هي تصفية النفس من طلب الأجر أو انتظار الثواب عليه، والثالثة: هي أن لا يرى ذلك الخلوص من الشوب، والخلوص من طلب الأجر، أي أن لا يرى إخلاصه. فيتّهم نفسه، ويعتقد أنّ كلّ ما عنده هو من الله تعالى. حتى الإخلاص الذي وصل إليه فهو من عند الله.

الإخلاص شرط في قبول الأعمال العبادية:

وفي ضوء ذلك يتبيّن لنا بأنّ الإخلاص ليس أمراً مكملاً للدعاء، وإنّما هو شرطٌ أساسي في صحته وقبوله، بل لا يتصوّر الدعاء بلا إخلاص، لأنّ حقيقة الدعاء تكمن في النية، وحقيقة النية تكمن في الإخلاص.

نعم، هل يُشترط كمال النية والإخلاص في العمل؟ فالجواب هو كفاية تحصيل المرتبة الأولى من الإخلاص، وهي مرتبة العوام، أي خلوص العمل من الشوائب والأغيار، فهذه المرتبة شرط أساسى لا بدّ منه؛ لما تقدم من قوله (ص): "يقول الله تعالى: مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لِهِ كُلُّهُ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَأَنَا أَغْنِيُ الْأَغْنِيَاءِ عَنِ الشَّرِكِ"، وقوله (ص): "لَا يَقْبِلُ اللَّهُ عَمَلاً فِيهِ مُتَقَابَلٌ ذَرَّةٌ مِنْ رِيَاءِهِ"؛ وكما جاء في الحديث القدسي المروي عن الإمام الصادق (ع) حيث يقول: "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا خَيْرٌ شَرِيكٍ، مَنْ أَشْرَكَ معي غَيْرِي فِي عَمَلٍ عَمَلَتَهُ لَمْ أَقْبِلْهُ إِلَّا مَا كَانَ لِي خَالِصًا"، أي خالصاً من الشوب والأغيار، وأما المرتبة الثانية والثالثة فهما كماليتان للدعاء والداعي، فالسلوك لا تليق به المرتبة الأولى، حيث ينبغي له الارتقاء إلى مرتبة عدم انتظار الثواب أو الاستجابة، كما أنّ العارف الواسع لا تليق به المرتبة الثانية فضلاً عن الأولى، حيث ينبغي له الارتقاء إلى المرتبة الثالثة وهي عدم الالتفات إلى نفس إخلاصه.

والآن، وقبل الانتقال إلى شروط الدعاء وآدابه، أودّ القول بأني إذا كان الدعاء هو مخالفة لعبادة كما جاء ذلك عن النبي (ص) حيث قال: "الدعاء مخالفة لعبادة، ولا يَهْلِكُ مع الدعاء أحد"، أقول: فإنّ الإخلاص هو مخالفة لدعاء.

إشراق:

مَنْ تزَيَّنَ بِكُمَالاتِ رَبِّهِ لَمْ يَجِدْ بُدُّاً مِنَ الْإِخْلَاصِ، فَالْغَيْرُ ظَلٌّ وَشَرِيكٌ لَهُ فِي التَّزَيِّنِ، فَلَا مَعْنَى لِلْإِخْلَاصِ لَهُ اسْتِقْلَالًا، وَأَمَّا مَنْ زَيَّنَ فَهُ الشُّوْبُ فَذَلِكَ دَلِيلُ الْفَقْدِ، وَهُوَ مَعْذُورٌ حَيْثُ لَمْ يَشْرُقْ قَلْبُهُ بِالْحَقِّ -
بَعْدُ، فَيَخْلُمُ لَهُ ►.

المصدر: كتاب الدعاء.. إشراقاته ومُعطياته